من ذكريات الغربة

دعاية ...

للأستاذ عمر الدسوقي

في العراق شباب ملء يومه ملء غده ، يتقد حماساً لوطنه وعروبته ، ويدأب ليل نهار في الدعاية لنفسه وقوميته ؛ عرفته فعرفت الثورة الملتهبة المتأججة ، والنفوس الطماحة الثوثبة ، تنفض عنه غبار القرون ، واستيقظ فالتفتت الدنيا ليقظته ، ثم زأر فارتاعت الأفلاك من زأرته ؛ أينما حلّ فمعمعة ونضال ، أو ضجة وجدال .

وقد على مصر منذ عشرة أعوام أول بَعث من فتية العراق ، ليطفئوا صدى نفوسهم من كوثر العلم ، وينشروا بين أبناء الكنانة فكرة جليلة سامية ، تشبعت بها نفوسهم ، وامتزجت دماؤهم ، وتراءت لهم في الحلم عزة وقوة ، وفي اليقظة عظمة وفتوة ؛ ولكن راعهم أنا بنهضتهم جاهلون ، وعن دعوتهم معرضون

دعوا للوحدة العربية ، فألفوا قلوباً غلفاً وآذاناً صماء وعقولاً سيطرت عليها فكرة الفرعونية ، وبلبلتها السياسة المصرية ؛ فلم يتكسعوا على أعقابهم ، أو يقنطوا من نجاحهم ، بل طفقوا يبددون دياجير هذا الجهل ، ويعرفون أبناء النيل ببلاد تعجب بهم ، وتعلم عنهم أكثر مما يعلمون عن أنفسهم ، ويرسلونها صيحة من فؤاد مؤمن بما يدعو إليه ، موقن بأن هناك من سيستجيب له : أن تعالوا إلى كلمة تجمع شملنا المبدد ، وتعيد إلى الحياة مجدنا الغابر ، وتجعلنا بين الأمم مكاناً علياً ، يبعث في قلوبهم الهيبة والرهبة ، ويغدو شجًى في حلوق الطامعين ، وقذًى في عيون المستعمرين ، ويحبط كيدهم ويبطل إفكهم ؛ فينشدون ودنا بدلاً من عدائنا ، وحلفنا عوضاً عن استهارنا

لبى نداءهم من فطن إلى ما انطوت عليه جوانح المستبد الغاصب ورأى في تلك النزعات الإقليمية هوة سيتردى فيها أبناء العروبة وهم في غفلة ساهون ؛ فنا البربرية ، والفرعونية ، والفينيقية ، والآشورية ، إلا شباك نصبها الطامع الشره ليحول بيننا وبين الوحدة المنشودة التي يخشى أن تزول الأرض تحت قدميه ، وتضع السيف والنار أمام عينيه ، إن عاد إلى ما ألف من عيشه بهذه الديار وذويها

أو لم يمزق أوصال الشام ، وقد سمت عليها العُصر وهي لا تعرف من دواعي الفرقة شبحاً ، وهي تلك الصخرة الشماء من العزة والإباء ، تتحسر عنها أواذي الكائدين كليلة خائبة ؟

عزّ عليه وقد خرج من معمعان الحرب نشوان بحميا الظفر أن يرى ديار العروبة تتحفز للوثوب ، وتتهم للنهوض ، فعاجلها بضربة خالها قاضية ، وفرقها أبادي ، حتى لا تطمع في قوة أو تأمل في عزة ، وحتى لا تعيد على مسرح التاريخ تلك الأنفة والحمية والأيد والجلد والاستهتار بالموت ، في سبيل الكرامة والشرف والعقيدة ، أيامَ أن حشدت أوربا جموعها وشنّها حرباً شعواء على هذه الديار باسم الدين ، فأصبحت العراق في قبضته ، ومصر في حوزته ، والشام أشلاء ممزقة . فا فلسطين وسوريا ، ولبنان ، وجبل العلويين ، وجبل الدروز ، والأسكندرونه ، إلا أعضاء جسد واحد كان من قبل رمزاً للمجد والنشاط والشهامة ؛ وأخذت طرابلس الغرب تسير وئيداً في سبيل الفناء ، وأحال تونس والجزائر بلاداً لا هي شرقية ولا غربية ، فسخت مسخاً ، وتبلبلت ألسنة بنيها برطانة لا هي فرنسية فتفهم ، ولا هي عربية فيفخروا بها ، وعمد إلى مراكش فكاد للاسلام والعروبة كيداً ، وحاول أن يهدم هذا الدين بعرف قد عفت عليه القرون لا يصلح لحضارة ولا يبعث رقياً

فطن من لبى نداء هؤلاء الفتية الأخيار إلى كل هذا ، وإلى أن ذلك التراث المجيد قد كان بالأمس منبعاً للنور والمجد والرحمة والإنسانية ، يفيض على الدنيا وقد جللتها سحب الجهل والظلم ، وإلى أن هذه البلاد على تباين أسمائها تلهج بلغة واحدة ، وتعتز بتاريخ واحد اشتركت فيه في البأساء والضراء ، وتشعر بشعور واحد ، وتنحدر من أصل واحد

وإذا لم تكن اللغة أداة التعبير ورمز التفكير ووسيلة تصوير الشعور والوجدان ، عاملاً من عوامل الوحدة وتأليف الأفئدة ، فماذا يكون ؟

وإذا لم يكن التاريخ والأدب والدم ، صلات وثيقة ، توحد بين الصفوف ، والأهداف والغايات ، فماذا يكون ؟ أسسوا جمعية صغيرة متواضعة تدعو إلى ذلك الغرض النبيل السامي ، وتعمل

فى إخلاص على توثيق عرى المودة بين أبناء العروبة فى مصر ، فانضوى تحت لوائها شباب طاهر بريء من نزعات الأحزاب القديمة وحزازاتها الشخصية

ولكن ما لبث أن سعى إليها الشيوخ يريدون أن يسخروها لأهوائهم؛ وطفق هؤلاء يستهوونها بالمال، وهؤلاء يمنونها بالتأييد، وهى بين ذلك تأبى من السخرية والتهكم ما يضعضع العزائم الثاقبة، ويثبط الهمم الصارمة

يا طالما كنت أعتذر لهؤلاء الرفاق عما يبديه بنو جلدتى من جفوة وإعراض ، وأقول : إنهم متى فرغوا من صراع العدو الناصب ، ونفضوا أيديهم من نزاله ، فسيمدون إليكم الأيدى طواعية ، وستنفتح قلوبهم لدعوتكم الرشيدة ، إن رأوا عزاً ومجداً لهم ولبلادهم ؛ فلا تهنوا ولا تحزنوا ، وثابروا على جهادكم ، فإن جلائل الأمور لا تنجز بين طرفة عين وانتباهتها .

غادرت مصر ، ونزلت مدينة « إكستر » ، ووفد علينا جماعة من العراقيين يطلبون العلم بجامعتها فقلت : ها ... إن الميدان قد تحول من ضفاف النيل إلى ربوع انجلترا ، ولكن وا أسفاه ! ، قد استمرأ هؤلاء الفتية حياة اللهو والدعة ، فإذا دعوتهم إلى الجد وضعوا أصابعهم فى آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً

ثم رحلت إلى لندن ، ووجدت فيها نخبة طيبة من أبناء العراق وفلسطين ، قد اتخذوا الجد قبلة يولون إليها وجوههم صباح مساء ، وحرصوا كل الحرص على أن يملأوا كناتهم لا بسهام محطمة من الخزعبلات والدنايا ، ولكن بالثقافة العالية والدراسة المجدية ؛ حتى يكونوا فى ساحة الجهاد أولى قوة وبأس شديد، وحتى يحطموا عن شرقنا المسكين هذه الأغلال التى كبلته ، وعافته عن النهوض والرقى زمناً طويلاً؛ وحتى ينازلوا الجهل بالحكمة، والأفن بالعقل، والميول الناية والأحقاد المزمنة والأغراض الحقيرة ، بالصرامة الحازمة والعقيدة الجازمة

أجمعوا أمرهم على تأليف جمعية عربية فى لندن ، تبث تلك الدعوة الصالحة بين شباب العرب ، وتقرب بين آمالهم وأهدافهم فإذا ما تشربتها قلوبهم ، واطمأنت إليها ألبابهم ، كانوا رسل الوحدة العربية فى ديارهم ، وتعرف الإنجليز بنا ، وبحضارتنا ، ونهضتنا . ثم بدا لهم أن يكونوا كذلك لفلسطين جنوداً على شفاف التامز يجبونها من حرارة إيمانهم ، وثمار عقولهم ، ما شاء لهم حبهم الطاهر لبلادهم ، وقصدهم النبيل فى إسعادها .

لليهود فى انجلترا سطوة وقوة ، وتجارة واسعة عريضة نامية ، ودعاية سديدة منظمة ، ينفقون عليها الأموال الطائلة ؛ ولهم فى دار النيابة خطباء هم أمراء البيان ، يذودون عنهم بكل ما أوتو من قوة وفصاحة[1] .

وأنى لنا ، ونحن شباب لا تظاهرنا حكومة ، أو يشجعنا ثرى ، أو تشد أزرنا سفارة ، مباراتهم فى الدعاية التى آمن بها الإنجليز عامتهم وخاصتهم لكثرة ترددها على أسماعهم ، اللهم إلا ذاك النفر القليل الذين ساحوا فى البلاد العربية ، وفقهوا سر شكواها وكنه مصابها . ولقد وجدنا فى هؤلاء نصيراً شد عضدنا ، وسدد خطانا، وبذل فى سبيل قضيتنا الوقت والمال عن سماحة وطيب نفس

أخذنا ندبج المقالات الضافية ، تنطق بالحقائق الناصعة ، وندبجها تارة بالخطابة ، وأخرى بالكتابة ، على الرغم من إيصاد الصحف أبوابها دوننا . وقد مُهد لنا السبيل لمناقشة فريق من أعضاء المجلس النيابى ، فكان منهم من يرى رأينا ويشد أزرنا ، ومنهم من يشيح بوجهه ويزور جانباً

لم نقصر دعوتنا على طبقة دون أخرى من الناس ، بل جلنا جولات صادقات فى كل مجتمع وندى ، وهتفنا باسم فلسطين العربية ما أتيحت لنا الفرصة

جاءت وفود العرب تترى لحضور حفلات التتويج ، يتقدمهم أمراء العرب الأمجاد ، فقلنا : لن يجتمع فى هذه البقاع من أبناء العروبة جمع مثل هذا يحميه ويؤيده ويزينه سلائل الملوك الصيد من أبناء عدنان وقحطان ... !

فلنصرخ صرخة مدوية تخترق شغاف هذه الأفئدة التى أغواها الصهيونيون، ولتكن زأرة الأسد ريع حماه، لحمها الشم، وسداها الإباء ، لا عويل الذليل العانى يسترحم القلوب بالنحيب والبكاء . . .

---

(١) يقرب عدد اليهود فى إنجلترا من نصف مليون ، ولهم فى البرلمان نحو عشرين نائبا ، ولهم نفوذ قوى على الصحف البريطانية ماعدا « التيمس » ويهيمنون على أكبر الشركات هناك كشركة « شل » ، وشركة الفنادق وغيرها ، ويحتلون أعظم المناصب فى الجامعات ، ويحتكرون دور السينما والملاهى .

رغب مني في أن يقيموا حفلاً تجتمع فيه بأمرائنا الأخيار ، فنؤدي واجب التكريم والتبجيل ، ونعلن لهم عزم الشباب على الفداء في سبيل المروءة واتحاد القوى ؛ ورأوا أن ما بأيديهم من المال قليل ، فغضوا الطرف عن دعوة ذوي الرأي والجاه في إنجلترا ، وكنت أرى أن تمد الدعوة إلى رجال الصحافة وكبار القوم ، حتى يروا رأي العين جمعنا الباهر، واتحادنا المتين، وحتى تصل كلماتنا إلى قلوبهم لعلها تلين . وهبت زوبعة من الجدال والنقاش كادت تعوقنا عن بلوغ هذا الشرف الرفيع ، لولا أن شد أزري صديق كريم[1] وتعهدت وإياه أن نقوم بسداد ما يزيد من النفقات إذا لم تهز الأريحية أفئدة أمرائنا الغر الميامين ذوي السماحة والندى ، فهبوا للحمية من نفحاتهم ما يعز مقامها، ويعلي منارتها . .

وكان حفلاً لم تشهد لندن نظيره من قبل روعة وبهاء وعظمة ورواء بل كان حفلاً فريداً قل أن يجود التاريخ بمثله . وكيف لا . . . وقد شرفه أمراء العرب ، وتلاقوا فيه لأول مرة جميعاً ملبين نداء الشباب ، ومناضلين عن فلسطين الشهيدة .

كبُتَ به من خال أن اتفاق العرب محال ، لشدة تنافرهم وتحاسدهم ، وتباين أهوائهم ومطامعهم ، بيد أن عزمات الشباب تذلل الصعاب وتحقق الرغاب

وقرعت دعوتنا أسماع من طالما صدفوا عنها ، وفتحت الصحف لنا أبوابها بعد أن أطنبت في وصف ذاك المشهد الفخم وهذه المظاهرة العربية الجليلة الوقورة

وقد حقق أمراؤنا الأبطال آمالنا ، فما إن سمعوا نداءنا حتى جاشت في قلوبهم حُميَّا النخوة والكرامة ، فقاهوا بكلمات تفصح عن نفوس عامرة ، وأفئدة ملؤها النبل والإباء، وقالوا : إن بلاد فلسطين وعنها تقض منا المضاجع ، وتحز القلوب حزًّا ، وإن خروجها من المعمة سليمة مستقلة ظافرة لأمل نضعه نصب أعيننا وصلاة نرتلها صباح مساء ، فثقوا بنا وبجهادنا والله يرعانا ويرعاها

وغمرت عطاياهم جميعنا الفتية ، فأصبحت في الجهاد أثبت قدماً ، وأشد بأساً ، وأعلى صوتاً ، حتى ضاق بها الصهيونيون ذرعاً ، فما قام منهم خطيب ينفث في الناس سمومه وتخرصاته ، إلا وجدنا أمامه نبطل كيده ونمحض باطله

وعدت ذات مساء إلى داري ، فرأيت ربة الدار محزونة مكتئبة فسألتها : ما بالها ؟ فقالت :

— جاء اليوم فتيان من أبناء صهيون، يتم حديثهما عن خبث طوية ولؤم جاد، وطلبا إلي أن أسدي لك النصيحة بالحسنى عن لسانيهما، وأناشدك الله وأهلك وغربتك إلا أقلعت وصحبك عن مناوأة جهادهم، وإن أبيت إلا اللجاج والعناد، فلهما منك يوم له ما بعده

ثم قالت : إني أخشى عليك هؤلاء القوم ، إذ لا تؤمن لهم غائلة ، ولا يتعففون عن دنيئة ؛ وما كان لي أن أزج بنفسي في خاصة أمورك لولا أنك نزيل داري ؛ وأنا لهؤلاء الصهيونيين مبغضة وعليهم حانقة

فقلت : شكراً لك — سيدتي — هذا العطف الجم ، والشعور الكريم ، ولا عليك من هؤلاء فلن يضيروني منهم شيء ، وسنرى .

عمر الدسوقي

(١) هو الأستاذ طارق الكزبري نجل المرحوم جبر باشا الكزبري، وأعهد أنه من خيرة شباب العراق وأشدهم وطنية وإخلاصاً

١٢ - ٦١

وزارة الأوقاف

إعلان

تقبل العطاءات بمكتب الميزانية والمشتريات لغاية ظهر يوم ٢٢ الجاري عن إنشاء عزبة جديدة بزراعة الهلالية بالمنزه مكونة من منزل لكن للمأمون ودوار واستراحة و٤١ منزلا للشغالة .

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من خزانة الوزارة نظير ٣٠٠ مليم .